

الجدل القائم حول نظرية العامل في النحو، ضرورة أم ترف فكري؟

1. نظرية العامل في النحو العربي
2. قصة سيبويه مع النحو و حاجته لنظرية العامل
3. فضل تدريس نحو سيبويه
4. فحوى الجدل القائم حول نظرية العامل
5. فماذا عن الجدوى من هذا الجدل؟
6. الخلاصة

من الغريب و العجيب اكتشاف مواضع و قضايا في النحو لا يخطر بالبال أنها كانت، و منذ زمن بعيد، مثار دراسة و بحث و جدل و أخذ و رد، حتى كتبت فيها الكتب و الرسائل و الأطروحات. و منها نظرية العامل التي استفزت فضولي و التي جعلت السؤال المطروح عندي هو هل هذه النظرية ضرورة لا يستقيم النحو إلا بها و تلتني حاجة ملحة لضمان الاستمرار في استعمال اللغة العربية بشكل سليم، أم تمثل مجرد ترف يثقل كاهل دروس هذه المادة بتعقيدها و يمكن الاستغناء عنها من دون أثر على ما أداه و لا زال يؤديه هذا العلم من خدمات جليلة لهذه اللغة؟

من أجل ذلك لا بد من البدء بالتذكير، و لو بإيجاز شديد، بنظرية العامل و بأثرها على استمرار سلامة اللغة العربية، ثم بالتطرق إلى حديث مختصر عن أصلها و عن مؤسسها. و بعد ذلك تجدر الإشارة إلى أثرها في تعليم اللغة العربية و في استمرارية استعمالها بصفة موحدة طيلة قرون عديدة. و في الختام يتم التطرق إلى سبب و فحوى الجدل القائم حولها اليوم، ثم على ضوء كل ما سبق أدلي برأيي المتواضع في شأن جدوى هذا الجدل، لأن الأمر يعني من حيث كوني عربي تهمة لغته و مقوماتها من جهة، و من حيث أنني مدرس سابق يهمله كلما يتعلق بالتعليم من جهة ثانية.

1. نظرية العامل في النحو العربي

من قوانين المنطق القديم أن لكل شيء سبباً وأن لكل حادث مُحدثاً. وهذا ما يعرف لدى المناطق بقانون السببية. وقد تبناه النحاة لما وجدوه فيه بالاستقراء موافقا لأساليب اللغة العربية، فجعلوه أساساً لعلمهم. و نشأت عندهم من هذا القانون نظرية العامل. ثم شغلت حيزاً كبيراً من كتبهم، وتعد أهم موضوع عندهم. و باختصار شديد تقوم هذه النظرية عند النحاة على أركان ثلاثة و هي :

- (1) العمل : و هو مصطلح المقصود منه الأثر، في شكل علامات إعراب، تظهر في آخر لفظ من تركيب ما من جراء اتصاله أو ارتباطه المعنوي بلفظ آخر من نفس التركيب.
- (2) العامل : هو مصطلح قُصد منه اللفظ الذي كان سبباً في ذلك العمل و قد يكون لفظاً معنوياً كالابتداء.
- (3) المعمول: هو مصطلح قصد منه اللفظ الذي وقع عليه ذلك العمل.

و على أساس هذه النظرية، كمقدمة منهجية للبحث في موضوع علمي كالنحو، ثم بالاستقراء في اللغة العربية الأصيلة و بالاستنباط، تم تأسيس القواعد النحوية كنتيجة منسجمة مع تلك المقدمة، و كمقوم صلب لهذه اللغة. و بفضل تلك القواعد استقام التواصل السليم بنفس اللغة بين كل أجيال الأمة العربية، حتى اليوم. و الذي زاد في قوة و تعميم بل في ديمقراطية هذا التواصل على أساس نفس القواعد النحوية، هو إعلام الفضائيات، فأصبح حتى الأمي من بيننا يفهم ما يسمع فيها من أخبار و غيرها باللغة العربية، و لو ظلت منعقدة عنده القدرة على التحدث بها.

2. قصة سيبويه مع النحو و حاجته لنظرية العامل

بإيجاز شديد، سيبويه هو أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري¹. فهو فارسي الأصل، قدم إلى البصرة ونشأ فيها وأخذ عن علمائها، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي. و يحكى أنه ذات يوم ذهب إلى شيخه حماد البصري ليتلقى منه الحديث ويستلم منه قول النبي صلى الله عليه وسلم: "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء..." ولكن سيبويه قرأ الحديث على النحو التالي: "ليس من أصحابي أحد إلا ولو شئت لأخذت ليس أبو الدرداء..." فصاح به شيخه حماد: "أحنت يا سيبويه إنما هذا استثناء". فقال سيبويه في نفسه: "والله لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد" ثم مضى ولزم الخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره. ومن هنا كانت البداية.

نستخلص من هذا المقطع من حياة سيبويه، أن العجم الذين كان لهم طموح في الارتقاء في السلم الاجتماعي بالدولة العباسية آنذاك، كان عليهم إتقان اللغة العربية، لأنها كانت اللغة الرسمية، لغة العلم و السياسة الثقافة و لغة من يلتبس الجاه عند الخلفاء، تماماً كما أصبح، على سبيل المثال، شأن اللغة الفرنسية بالدول المغاربية خلال الحقبة الاستعمارية و مع الأسف الشديد حتى بعد الاستقلال. و كان اللحن في العربية كالخطأ في الفرنسية عندنا اليوم. يشكل عقدة تخدش كرامة كل أعجمي طموح، مما يقوي الحاجة عنده لتعلم العلم الذي يقيه شر هذا اللحن في القول. و بلا شك ذلك هو تفسير قول سيبويه: "والله لأطلبن علماً لا يلحنني معه أحد"

و لزومه الخليل بن أحمد الفراهيدي خير دليل على أن علم النحو كان عند سيبويه هو السبيل لتلبية تلك الحاجة. و كان لدى هذا الشيخ ما انتهى إليه هذا العلم آنذاك. و لكن و بلا شك لم يجد عنده سيبويه ما يكفي لتلبية الحاجة التي من أجلها لزمه. بعبارة أوضح، لم يجد في المتوفر من علم النحو عند شيخه الذي كان قمة في فنه، ما يكفي، ليس فقط سيبويه، بل كل من يتطلع من الأعاجم مثله، إلى أن لا يلحنه أحد. و بلا شك لمس شبه فراغ في هذا العلم بالنسبة لكل من له نفس الطموح و الحاجة في إتقان اللغة العربية. لمس ذلك الفراغ الذي لولاه لما لجأ إلى البحث و الابتكار و الإبداع لمثله. و بتبنيه نظرية العامل تمكن من تأسيس قواعد النحو التي ظلت طوال قرون و لا زالت حتى اليوم، قوام التواصل السليم باللغة العربية بين كل أجيال الأمة.

العبرة من هذه القصة هو أن حاجة سيبويه لإتقان اللغة العربية في صباه، هي أشد و أقوى اليوم لكل واحد منا بكل العالم العربي، لأن كل واحد منا أصبح شبه أعجمي بسبب اللغات المحكية التي تكاد تكون لغات شبه مختلفة تمام الاختلاف عن اللغة العربية. فكل منا اليوم أصبح بشكل أو بآخر سيبويه، أعني ذلك الصبي الأعجمي الذي تعرض من شيخه للتوبيخ بسبب اللحن في القول، و الذي شعر حينها أنه في حاجة لما يقيه من أن يلحنه أحد بعده، حتى يُعتبر متعلماً محترماً بين الناس. و لولا تلك الحاجة عنده و إبداعه المؤسس بالضبط على نظرية العامل لكنا و ما زلنا حتى اليوم في حاجة للبحث و الابتكار لإيجاد مخرج من فوضى لغوية عارمة. لكنه أغنانا رحمه الله عن كل ذلك بما أنجزه من عمل عظيم، خدم و لا زال و سيظل إن شاء الله يخدم أجيالاً من العرب.

3. فضل تدريس نحو سيبويه

و لم يوجد حتى اليوم من يأتينا بنحو أفضل مما ترك لنا سيبويه في علم النحو. و لذلك قيل فيه أنه العلم الذي نضج حتى احترق. و في هذا الصدد و في حق سيبويه وجدت هذا التعليق تحت عنوان: "جريمة سيبويه"² و الذي لم أستطع مقاومة إدراجه في هذا العرض بقليل من التصرف: {كثيراً ما نسمع شعراء تونس وهم يندبون حظهم، ويتهمون أبا القاسم الشابي بأنه حكم عليهم بالإعدام؛ لأنه ما ذكر الشعر التونسي إلا وذكر أبو القاسم الشابي فقط. و يبدو أن هذا الاتهام وجه أيضاً إلى سيبويه. فيقول عضو من أعضاء المجمع اللغوي: "قد كان من سوء حظ النحو العربي أن جاء سيبويه في وقت مبكر جداً لا يتجاوز النصف الثاني من القرن الثاني الهجري؛ إذ نتج عن تفوقه وشدة إعجاب النحاة به أن أصيب التفكير النحوي بشلل. ودار الجميع في فلك

المصدر: موقع wikipedia. 1

المصدر: موقع islamoline 2

سيبويه، ولم يطوروه بالقدر الكافي. ويكفي دليلاً على ما كان لعمل سيبويه من سحر وإغراء إطلاقهم على كتابه اسم " قرآن النحو" { اهـ.

ثم ظهر في القرن السابع الهجري ابن مالك، و عُرف بغزارة علمه في النحو، فجمد نحو سيبويه بصبه في قالبه الأخير. فقد نظمه في ألفيته المشهورة موضحاً و مفصلاً و بذلك قربه إلى أذهان عامة الناس. و باعتماد تدريس قواعد نفس النحو مبسطة في كل المدارس و كل المعاهد بالعالم العربي بل بالعالم، و لكل الأجيال حتى اليوم، ظل المجتمع العربي و لا يزال و سيبقى يستطيع التواصل و التفاهم و قضاء كل أغراضه باللغة العربية في اليعدين الزمني و المكاني من دون مشاكل تذكر. و اللغة العربية كما كانت قديماً و حتى اليوم لا زالت سليمة و بألف خير و تزداد شباباً و عفواناً بفضل تبنيتها من طرف الإعلام المرئي و المسموع. و خير دليل على ذلك مرة أخرى، و بالضبط تبني الإعلام العربي الفطري و الدولي، اللغة العربية السليمة القحة كأفضل و أبسط قناة تواصل و إخبار و ثقافة و علم و فن و ترفيه، بين كل شعوب العالم العربي من دون أية مشاكل تستحق الذكر. و نفس الشيء بالنسبة لكل مستويات منظومات التعليم بكل العالم العربي.

4. فحوى الجدل القائم حول نظرية العامل

لم يخل تاريخ النحو من انتفاضات صغيرة على نهج الكوفة في الاعتراض على استعمال القياس المنطقي في النحو. و كان يدور النقاش فيها حول المنطق و النحو. كان البعض يريد الاعتزاز بخصائص اللغة العربية و يستنكر إخضاعها لمنطق غريب عنها و صب أساليبها في قوالب المنطق الإغريقي. و في نظري المتواضع، يعترني هذا النهج في الانتقال خلط بين موضوع العلم و الخلفيات القومية و الثقافية. فالمنطق مهما كان مصدره فهو إنتاج فكري و ليس لقوم من دون غيرهم، فهو بذلك ملك بشري مشترك. و كونه يفى بالغرض المراد منه في الحفاظ على سلامة اللغة يكفي كحجة على صواب اتخاذ كمرجح صالح لخدمة النحو العربي.

لكن في المغرب، في عهد الموحدين، ظهر أعظم تائر على نحو سيبويه، هو ابن مضاء القرطبي. استنكر كذلك أقيسته انطلاقاً من نفس الخلفية الثقافية، فكتب ثلاثة كتب و هي: المشرق في النحو و تنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان، و الرد على النحاة. و لكن رأيه لم يقدر له النجاح ربما خوفاً من الابتعاد عما تطمئن له النفوس إلى حيث المغامرة الغير محسوبة العواقب و إلى حيث يسود الخوف من المجهول.

و بحسب موقع من الشبكة العنكبوتية³، كان الدكتور شوقي ضيف من أوائل من فجروا مجدداً قضية النحو العربي و ضرورة النظر في كثير من مسلماته إثر نشره و تحقيقه لكتاب: "الرد على النحاة" لابن مضاء. و لم يكتفي هذا العالم بتحقيق كتاب ابن مضاء، بل تبني فكره و أيده و تتبع دراسة تاريخ النحو العربي ونظرياته و مدارسه، و أشرف على العديد من الرسائل العلمية في هذا المجال. كما اهتم بقضية تيسير النحو العربي و تعليمه، و ألف في ذلك "تجديد النحو" و "تيسيرات لغوية" و "الفصحى المعاصرة". فجاء في مقدمته للطبعة الأولى من تحقيق كتاب ابن مضاء ما يلي: { وقد سدد ابن مضاء سهام دعوته أو قل سهام ثورته إلى نظرية العامل التي أحالت كثيراً من جوانب كتاب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل عسيرة الفهم.. إن كل ما تصوره النحاة في عواملهم النحوية تصور باطل". "...وليس هذا كل ما تجره نظرية العامل في كتاب النحو العربي؛ فهي تجر وراءها أيضاً حشداً من علل وأقيسة يعجز الثاقب الحس والعقل عن فهم كثير منها؛ لأنها لا تفسر غامضة من غوامض التعبير، ولا دفيئة من دفائن الأسلوب، وإنما تفسر فروضاً للنحاة، وظنوناً مبهمة... وهذا كله أفسد كتاب النحو العربي إفساداً؛ لأنه ملاءم بمسائل ومشاكل لا نحتاج إليها في تصحيح نطقنا وتقويم لساننا { اهـ.

5. فماذا عن الجدوى من هذا الجدل؟

فبعد تبيان فحوى هذا الجدل القائم من جديد حول نظرية العامل، أود هنا مناقشة جدواه من خلال النقاط التالية:

(أ) من يعي و من تعنيه تعقيدات نحو سيبويه؟

فقول الكاتب أعلاه : { نظرية العامل أبحاث كثيرة من جوانب كتاب النحو العربي إلى عقد صعبة الحل عسيرة الفهم } لا يعيه و لا يهيم في نظري المتواضع، إلا من يتحرى البحث العمودي المعمق في مادة النحو. و ذلك من اختصاص الأكاديميين بالتعليم العالي فقط. و لهؤلاء الأخصائيين القدرة على التحمل و التصدي لتعقيداته، فهم أهل له من دون الحق في التشكي منه. و عليه، فنحو سيبويه معقد فقط بالنسبة لمن يدرسه دراسة عمودية معمقة.

(ب) و ماذا عن نحو سيبويه بالنسبة لعموم الناس؟

فيما يخص عموم الناس، سواء كانوا مثقفين أو مجرد متعلمين، فما تلقوه من دروس و قواعد مبسطة و مستخلصة من نفس النحو المنتقد اليوم، كافيههم بصفة كاملة و تامة للقدرة على التحدث و القراءة و الكتابة بطريقة سليمة. و ذلك ناتج بالضبط عن التبسيط المنشود و الذي هو منذ القديم قائم و تحصيل حاصل بكل الكتب المدرسية. فالنحو المدرس في كل المنظومات التعليمية، الابتدائية منها و الثانوية، هو النحو الأفقي، بمعنى أنه يقتصر في كل موضوع على القدر العملي الضروري للحاجة و المفيد في تمكين المتعلمين من كفاية التواصل بطريقة سليمة من دون الخوض في كل التفاصيل و التعقيدات و التعليقات المملة أحيانا و المتعبة. و في أغلب الأحوال لا تليق مثل هذه التعقيدات المشتكى منها إلا في التباري في فن الإعراب بالنسبة للمتخصصين من أجل فك رموز لغوية في علم ما. و لكن عموم الناس، الذين يهمن أمرهم هنا، لا يبالون بالإعراب الذي هو بالنسبة لهم مجرد ترف فكري و ليس من حاجيات التواصل بينهم. أما تلاميذ التعليم الأساسي و الثانوي فمن أجل تمكينهم من اللغة العربية يفهم في النحو الإعراب البسيط المقرر بالكتب المدرسية.

(ت) و العبرة بإيجاد البديل الناجع

و حتى إذا ما سلمنا جدلا بأن نحو سيبويه معقد بالنسبة للجميع، فالعبرة لن تكون بالتأكيد على هذه التعقيدات، لأنه سيكون من قبيل المسلم به فلا يقدم و لا يؤخر، و ليس في التذكير به أية قيمة مضافة. و لكن العبرة بمن يأتي ببديل عن هذا النحو المفترض أنه معقد بالنسبة للجميع، و الكفيل في نفس الوقت بتعويضه في خدمة اللغة على الأقل بنفس المستوى الذي خدمها به نحو سيبويه بالرغم من تعقيداته المزعومة. و هذا الأمر يتطلب مجهودات جماعية من طرف العلماء المتخصصين و قد يستغرق وقتا طويلا. و من غير ذلك فمن العبث هدم ما هو قائم و الذي به تُقضى حاجات الناس. فعلى سبيل المثال، البترول المستهلك اليوم كمصدر أساسي للطاقة هو أكبر ملوث للبيئة و ضار بالصحة. و لكن لا تقوم الحياة العصرية إلا به. فلا يمكن الاستغناء عنه بسبب أضراره إلا بعد التوفر على مصدر للطاقة النظيفة البديل عنه و الذي له نفس الفاعلية. فالبشرية تتحمل اليوم أضرار البترول كئمن لفاعليته في الحياة العصرية التي لا مناص منها، إلى حين وجود البديل الناجع.

و مع ذلك فنحو سيبويه ليس يمثل هذا السوء بالنسبة للجميع، إلا في أذهان بعض النحاة و بعض الدارسين المتخصصين في هذا العلم. فمثلهم في شأن هذا الفن كمثل أساتذة الموسيقى الذين لا يطربون إلا للقطع السنفونية الرائعة أو الأدباء الذين لا يتلذذون إلا بركة و جودة النص الرفيع. أما عموم الناس فيقتنعون بما تيسر من كل فن و كل علم بما فيه نحو سيبويه. و أنا منهم، و أكتب هذا العرض بلغتي العربية البسيطة القائمة على قواعد نفس النحو، و لي مع ذلك، شبه اليقين بأنها ستفي بالغرض المتوخى منها و الكامن في إيصال الرسالة التي ضمنها إياه.

و من أراد أن يلم بكل موضوع على حدة في كتاب "النحو الوافي" مثلاً، لمؤلفه عباس حسن، فليس من باب الضرورة لاستعمال اللغة العربية كقناة تواصل بطريقة سليمة، وإنما من باب الفضول العلمي. و مهما كان الدارس لهذا الفن مجيدا للغة العربية سيكتشف تلك التعقيدات التي لا حصر لها، و لكنه سيكتشف أيضا أنها نتيجة طبيعية لمنهجية أعلنت عن مقدمتها. و الإمام بكل هذه التعقيدات ليس أبدا ضروريا للتواصل باللغة

العربية بصفة أسلم. فمن ألم بها لن يتحدث و لن يقرأ و لن يكتب بعربية أحسن مما كان يستطيع. بل من النحاة المتميزين من لا يسلم من أن يلحن في الكلام و حتى في الكتابة، و قد يستدرك خطأه و قد لا يشعر به و لا يبالي به حتى.

ث) التعليم يعاني اليوم بالضبط من آفة الإمعان في تبسيط المُبسّط أصلا

و بالنظر لكل ما سبق فلا مبرر للمطالبة بمزيد من تبسيط نحو سيبويه و غيره، ما دام على حاله يفى بالغرض المراد منه من دون مشاكل تذكر عند عامة الناس. و الذي يُخشى منه في كل تعليم أساسي، هو بالضبط الإفراط في تبسيط مضامين البرامج و المناهج المستصغرة لقدرات التلاميذ الصغار. ففي كل تبسيط مفرط لمضامين المقررات **تحنيط** لعقول التلاميذ، يَشَلّ نمو قدراتهم و مؤهلاتهم الذهنية و يحول دون صفق ملكاتهم.

فلو كان شيوخ و أساتذة سيبويه يستصغرون قدرات عقول تلاميذهم الصغار كما نفع اليوم بتعليمنا، ما كنا لنسمع بكل أولئك الأعلام الذين تفتقت عقبياتهم، فتخرجوا من تلك المدارس موسوعيين في سن مبكرة، فنبغوا في شتى العلوم، بل أغنوا المتوفر منها و أسسوا للجديد منها و ألفوا فيها المجلدات التي تشكل و تمثل اليوم عظمة تراثنا العربي و الإسلامي. أولئك الشيوخ في تلك العصور الزاهرة قدروا قدرات عقول تلاميذهم الصغار **حق قدرها**، فما كانوا يبسطون دروسهم أكثر من اللازم، و ما كان يخطر ببالهم ذلك التبسيط المُحَنّط للعقول و المُشَلّ لنمو قدراتها. كان المطلوب من التلميذ عندهم، رغم صغر سنه، السمو بعقله لمستوى العلم بكل تعقيداته و ليس العكس.

و لا زال هذا النهج قائما حتى اليوم و بحق في المدارس العتيقة ببلادنا. و لما يجمع نفس المدرج بالكلية طلبة التعليم العمومي و طلبة تلك المدارس العتيقة، نلمس الفرق بين مستوى تكوين من كانوا ضحايا الإفراط في تبسيط البرامج و المناهج من فرط استصغار قدرات عقولهم و هم صغار من جهة، و بين مستوى زملائهم الذين بالعكس من ذلك تماما، نالوا ما يستحقونه من تقدير للقدرات و المؤهلات الطبيعية التي أودعها الله في تلك العقول مند نعومة أظفارهم من جهة ثانية.

و بتلك المنهجية القائمة على التحدي، يتوزع التلاميذ و الطلبة بحسب تفاوت قدراتهم الطبيعية إلى ثلاث فئات متميزة : 1) فئة المتفوقين (2) فئة المتوسطين (3) و فئة من دونهما. و ذلك بحسب ما يُعرف اليوم بالتوزيع الطبيعي **عل منحني Gauss** الذي يأخذ شكل سمن الجمل أو ظهر الجرس في الرسم المبياني من بعدين. أما بنقيض تلك المنهجية المستصغرة لقدرات التلاميذ و المفرطة في تبسيط البرامج و المناهج، فيحصل ما أسميه **بدمقرطة الضعف** la démocratisation de la médiocrité و المتمثل في **تسطيح مستوى كل التلاميذ من الأسفل** nivelage par le bas.

الإفراط في تبسيط البرامج و المناهج قد يفضي بالتدريج إلى حد إفراغ المقررات من محتواها. و بدلا من فرصة الحصول على توزيع طبيعي للتلاميذ بين الفئات الثلاث المذكورة أعلاه و المتناسبة مع التفاوت الطبيعي بين قدراتهم العقلية و الذهنية، نحصل على تسوية الجميع بالمستوى السفلي للفئة الضعيفة منهم. فالتبسيط في البرامج و المناهج يحرم أبناءنا و بناتنا من فرصة بروز الفئتين المتفوقة و المتوسطة و فرصة أخذ كل منهم الموقع الذي يستحقه بالفئة المناسبة لقدراته الطبيعية. و **المطالبة بالمزيد من تبسيط نحو سيبويه** بحجة صعوبته المزعومة بالنسبة للجميع و من باب الشفقة الغير المبررة على قدرات عقول التلاميذ، هو في نظري المتواضع، من قبيل نفس الإمعان في ذلك التبسيط المميت للتعليم.

الخلاصة

نستخلص من كل ما سبق أن الخوض في جدوى نظرية العامل التي عليها تأسست القواعد النحوية، ليس أصله مشكلة قائمة في الاستعمال السليم للغة العربية بين عموم الناس. بل من دون النحو القائم على تلك النظرية فقد نسقط في **فوضى الفراغ** الذي وجد فيه نفسه سيبويه حينما عوتب من طرف شيخه باللحن في

القول. و في نحو سيبويه توجد فعلا تعقيدات لكن لا يعيها و لا يهتم بها إلا خاصة الناس من أهل الفن و الدارسين له. أما بالنسبة لغيرهم, و هذا هو المهم, فبالقدر المبسط من نفس النحو يقضون كل أغراضهم اللغوية من دون مشاكل تذكر. و الخوض في تعقيدات النحو عندهم من قبيل **الترف الفكري ليس إلا**. و من ينتقد نحو سيبويه عليه أن يأتي أولاً بالبديل عنه الذي من شأنه أن يخدم اللغة العربية على الأقل كما خدمها نحو سيبويه.

و التبسيط المطلوب في نحو سيبويه **قائم و حاصل منذ القدم** و مدوّن بكل الكتب المدرسية, و مستهلك بنجاح و يفي بالغرض المطلوب منه و بالقدر الكافي بل بالقدر الزائد عن الكفاية. و لا داعي لطلب المزيد من التبسيط لا فيه و لا في غيره من مضامين مواد التدريس بتعليمنا. فالتعليم يعاني اليوم بالضبط من عواقب الشفقة الزائدة عن الحد بالتلاميذ و المستصغرة من دون وجه حق لقدرات عقولهم. يغفل من يطالب بالمزيد من التبسيط في مضامين مواد التعليم أن تلك العقول لا تنمو فقط من جراء النمو الطبيعي للجسم, بل هي تماما كالعضلات تقوى أكثر و تنبغ و تُصقل ملكاتها بتواتر تعريضها لوضعيات المطلوب فيها من التلميذ رفع تحديات المشاكل و المسائل المعقدة في كل فن. و هذا ما يتماشى بالضبط مع نفسية الأطفال و الشباب, و الواجب استثماره. فالذي يستهويهم هو بالضبط البحث عن فرص التحدي و التباري, و ذلك ما نغفل عن استثماره في تعليمنا, فنهمله بالتبسيط الممل و المتعب و المنفر حتى من المدرسة و من التمدريس, و كل ذلك بحجة ضعف قدرات التلاميذ العقلية التي لا أساس لها.

و يمكن القول أن التبسيط المفرط لا في نحو سيبويه و لا في غيره من رياضيات و باقي العلوم, من شأنه حرمان أبنائنا و بناتنا من التمتع بفرص رفع التحدي التي تتيحها تعقيدات كل هذه الفنون. و عليه فما من داعي وجيه مرة أخرى للخوض في نظرية العامل في نحو سيبويه بسبب تعقيداتها حتى في حالة ما إذا وصلت تلك التعقيدات إلى **الفصول بمدارسنا**.

و لو سلكت الأندية الرياضية مسلك التعليم عندنا باستصغارها لقدرات أجسام الأطفال, لما تعرضت للتمارين القاسية و لما نمت و تقوت و أفرزت الأبطال الذين نسمع بهم. فسر حصد الصين للحظ الوافر من الميداليات بالأولمبياد الأخيرة يكمن بالضبط في ولوج أبطالها و بطلاتها أندية التداريب في سن **جد مبكرة**, لكي تتعرض لتواتر تداريب جد قاسية. فنفس الشيء بالنسبة للعقول عند الصغار, نموها و صقل ملكاتها يتطلب ما يكفي من فرص رفع التحديات في السن المبكرة, بدلا من استصغار قدراتها بالتبسيط المفرط.

و لنا اليوم عبرة في جودة تكوين تلاميذ المدارس العتيقة التي تسلك في تعليمها مسلك الأندية الرياضية في إعداد و تهيئ الأبطال بما يكفي من التمارين و التداريب اللازمة رغم قسوتها على تلاميذها منذ نعومة أظفارهم. و لو وسعت تلك المدارس العتيقة **بنفس المنهجية**, من دائرة العلوم التي تدرسها إلى الرياضيات و الفيزياء و الكيمياء و باقي العلوم الطبيعية و لتدريس مختلف اللغات, لاستطاعت إعداد نوابغ و عباقرة موسوعيين, كما كان الحال في الماضي.

المصطفى حميمو

hmimous@hotmail.com

[الصفحة الرئيسية](#)